أوائل المسلمين

(٨)

إسلام العاص بن الربيع

بقلم

السَّيد شحَاته

أوائل المسلمين

إسلام العاص بن الربيع

بقلم

السيد شحاته

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العَالَمين ، والصَّلاةُ والسلامُ عَلَى المبْعوثِ رحمةً للعَالمينَ ، وعلى آله وصَحْبه ، ومن اهتَدى بَهدْيهِ إلَى يَوم الدّين .

وبَعْد :

فَهذهِ صُورة صادِقةٌ بيْنَ يَديْك أيُّها القارئ العَزيزُ ، لصَفوةٍ منَ الصَّحابَةِ الأجلَّاء الّذين دخلُوا فى دِينِ الله أفواجًا وضحّوْا بالغالى والنَّفيسِ فى نَشْر هذه الدَّعوة المبارَكة .

وقد جاءتْ رائعةَ الأُسْلوبِ ، قَريبةً إلى الأذهان .

والله نرجُو أن تكونَ مُفيدةً هاديةً ، وأن يستَفيد منها كُلُّ مُسلمٍ لأنها مأخُوذَة من صفحات التَّاريخ الإسلامى العظيم .

والله ولىُّ التوفيق

ابنُ الخالةِ

أمَّا بَطَلُنا فى هٰذه القِصَّةِ فهوَ صِهرٌ مِنْ أصْهارِ النَّبىِّ صلواتُ اللهِ عَليهِ ذٰلكَ هُوَ أبو العَاصِ بنُ الرَّبيعِ ، مِنْ بَنى عَبدِ شَمسِ بْنِ مَنافِ بْن قُصىٍّ ، وهُوَ مِنْ فِتْيان مَكَّةَ المعْدُودِينَ ، ومِنْ رِجَالها الأفْذاذِ الأطْهارِ ، ومِنْ أكْثَرِهم مَالاً ، وأوْفَاهمْ ذِمَّةً ، وأوْسَعِهم حِيلَةً فى التِّجارَةِ ، مَعَ أمَانةٍ وشَرَفٍ .

وأمُّه هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلدٍ ، أُخْتُ خَدِيجة أُمِّ المُؤمنِينَ رَضِىَ اللهُ عَنْها ، وزَيْنَبُ بِنْتُ خَالتِه ؛ لهٰذا اسْتعانَ أبُو العَاصِ بخَدِيجةَ خَالتِه ، لتَخْطُبَها لهُ مِنْ أبيها مُحمَّدٍ عليهِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه وكانَ لَم يُبْعثْ رَسُولاً بعدُ .

وكانَتْ خَديجةُ تُعِزُّه وتُكْرِمُه ، وتَتَّخذُه فى مَكانةِ وَلدِها ، وتَحْرِصُ عَلى قُرْبِهِ مِنْها ، فتَقدَّمتْ رَضِىَ اللهُ عَنْها إلَى زَوْجِهَا عليهِ السَّلامُ ، وسألَتْه أنْ يُوافِقَ عَلى زَواجِ ابْنَتِهمَا « زَيْنبَ » مِنَ ابنِ خَالَتِها أبِى العَاص بْنِ الرَّبيعِ .

وكانَ عَليهِ السَّلام يَبرُّ خَديجَةَ كلَّ البِرِّ ، ويجْتَهدُ أنْ يُرْضِيها كمَا تُحِبُّ ، فلَم يخالِفْ لَها رَأْياً ، ولَم يرد لَها سُؤَالاً .

وزُفّتِ العَروسُ الطّاهرةُ إلَى الزّوجِ الأبيّ الكَريمِ . وكان ذلكَ قَبلَ الرّسالَةِ .

* * *

ولمَّا أكْرمَ اللهُ مُحمدًا عَليهِ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه نَبيًّا ، واصْطَفاهُ لتَبلْيغِ رِسَالتِه ، أسْرعَ كَثيرٌ مِنْ أهْلِه وَذَويهِ إلَى تَصْديقِه والإيمانِ بِه ، وكانَ مِنْ أوّل المسْلمِينَ هؤُلاءِ زَوْجتُه خَديجةُ ، وبنَاتُه رَضىَ اللهُ عَنْهنَّ . وكانَ مِنْ بنَاتِه المصَدّقاتِ لَه زيْنبُ عَروسُ أبِي العَاصِ بنِ الرّبيعِ .

وتَكاثَر المسْلمونَ يَومًا بَعدْ يَومٍ فأزْعجَ ذَلكَ المشْرِكينَ وقَال بعْضُهم لَبعضٍ :

إنَّ مُحمداً صَارَ خَليًّا مِنَ الهمُومِ ، وأعْباءِ الحيَاةِ ؛ لأنّهُ زوّجَ بناتِه ، وانْصَرفَ لدَعْوتِهِ ، هٰذِه الدّعوةُ الّتِى تَكْسرُ مِنْ شَوكَتِنا وتُسفّه مَا كانَ يعْبدُ آباؤنا .

فلمَاذَا نَتركُه بِلاَهمٍّ ، ولاتَفْكيرٍ ؟

وتَفتّقَتْ أفْكارُهُم عَن حِيَلٍ خَبيثَةٍ ، ومَكايدَ شرِّيرةٍ ، ذَلكَ أنّهمْ قالُوا لابُدَّ أنْ نَسْعى لتَطْليقِ بنَاتِه مِنْ أزْواجِهنَّ ، فَيعدْنَ إلَى بَيتِه ، يحْملُ هُمومَهُنَّ ، ويتَلهَّى بهِنَّ عنَّا .

فَمشَوْا إلَى عُتبَةَ بنِ أبِى لَهبٍ ، فقَالُوا لَه :

- طَلِّقْ رُقَيَّةَ بنَتَ مُحمدٍ ،ونَحنُ نُزوِّجُك أىَّ امْرأةٍ تُريدُها مِنْ قُريشٍ .

واخْتارَ زوْجةً زوَّجوهُ بهَا ، وطلَّق رُقيةَ بنتَ الرَّسولِ ، قَبل دُخُولِهِ بهَا ، وكانَ ذَلكَ إكْرامًا مِنَ اللهِ لهَا .

ثمَّ مَشوْا الَى أبِى العَاصِ بن الرَّبيع - وكانَ عَلى شِرْكهِ - فقالُوا لَهُ :

- ياأبَا العاصِ . طلِّق زَينبَ بنْتَ مُحمدٍ ، ونَحنُ نُزوِّجكَ أىَّ امْرأةٍ غيْرهَا مِنْ قُريشٍ ، فأبَى أنْ يَستَجيبَ لهٰذه الدَّعوةِ الشرِّيرَةِ ، وقالَ :

- لاأُفارقُ صاحِبَتِى ، وماأُحبُّ أنْ يَكونَ لى أىُّ امْرأةٍ مِنْ قُريشٍ .

* * *

واستَمرَّ أبو العَاصِ عَلَى شِرْكهِ ، وأَسْلَمتْ زَينبُ ، وانْصبَّ غَضبُ الكُفَّارِ عَلى الرَّسولِ فى مَكَّة ، وكانَ فى قِلَّةٍ مِنَ المسْلمينَ ، وآذَوْهُ إيذاءً شَديدًا فصبرَ ، وصَبرتْ مَعهُ هٰذِه القِلَّةُ ، ولكنَّهمْ عاشُوا فى مَكَّة بَينَ المجاهَدةِ فى نَشْر الدَّعوةِ وتَحمُّلِ أَذَى الكُفَّارِ .
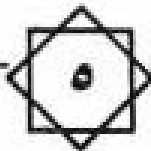
وشُغِلَ النَّبِىُّ بالدَّعْوةِ المبَارَكةِ وتَحمَّلَ فى سَبِيلِهَا ماتَحمَّلَ ، ولَكنَّ إرادَةَ الخَالِقِ سُبْحانَه لابُدَّ أنْ تَنْفُذَ .

الهِجْـرَةُ

ولمَّا آذنَ اللهُ للرَّسولِ الكَرِيمِ بالهِجْرةِ إلَى المدِينَةِ المنَوَّرةِ خَرَجَ مَعَ صَحبِهِ أبِى بَكْرٍ وتَرَكَ أهْلَه فى مَكَّةَ ، وكانَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ أليمًا ، ولَكنَّها النُّبوَّةُ الطَّاهرةُ ، والدَّعوةُ المجِيدةُ يَركَبُ الكَريمُ مِنْ أجْلِها الصَّعْبَ ، ويَتَخطَّى العَقَباتِ . وهَكَذا انْدفَعَ رسُولُ اللهِ العَظيمِ إلَى غَرَضِهِ ، فَتفتَّحتْ أمَامهُ آفاقٌ جَديدَةٌ ، وأوْشَكَ فَجرُ النَّصرِ أنْ يَطلُعَ ، حتَّى يُبدِّدَ ظُلماتِ الشِّرْكِ الَّتى فَعلَت أفاعِيلَها فى مَكَّةَ .

* * *

تَرَكَ عَليهِ السَّلامُ أهْلَه وأوْلادَهُ كلَّهم فى مَكَّةَ ، ولامُعينَ لَهمْ ولا نَصيرَ مِنْ أهْلٍ أَو ذِى قُرْبَى ، ولَكنَّ رحمَةَ اللهِ ورِعايتَه لَهمْ فَوقَ كلِّ رِعايةٍ .

غـــزوة بـــــدر

ومِنَ المدِينَة بَدأ عَهدٌ جَدِيدٌ ، إذْ عبَّأ الرَّسولُ عَليهِ السَّلامُ أَصْحابهُ لنُصْرةِ الحقِّ ، وتَبْديدِ قَواعِدِ الشِّركِ ، وكانَ عَليه السَّلامُ قد عَلمَ أن تجارَةَ لقُرَيشٍ بزعامة أبى سُفيان فى طَرِيقِها إلى مكَّة ومَعَها عدد من زُعماء قُرَيشٍ ، فقال لأصحابه : اخرجوا إليها عسى الله أن يجعلها لنا غنيمةً ، ولكنَّ أبَا سُفْيان عِلمَ بخُروجِ المسْلمينَ فغيَّرَ طريقهُ ونجا بتجارته . فأعدَّ الرسُولُ أنْصارَهُ لملاقاةِ قُرِيشٍ فى مَوْقِعةِ بَدرٍ ، وكانَ المسْلمونَ قَليلينَ إلا أنَّ الله أَمَدَّهُم بجنودٍ غَيْرِ مَنْظورةٍ ووقَفَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ أَمامهُمْ وقالَ :

– شُدُّوا عَلَيهم .

فَهزِمَ المشْركونَ ، وقُتِل مِنهم مَنْ قُتلِ ، وأُسِرَ مَنْ أُسِرَ .

❊ ❊ ❊

ولما انْتَهى الرَّسولُ الكَرِيمُ مِنْ أَمْرِ الموقِعَة رَجَعَ الَى المدِينَة ، ومَعَهُ الأَسْرى مِنَ المشْرِكينَ ، فاستَقبَله أهْلُ المدِينةِ بالتَّرحِيبِ والتَّكْريمِ ، وبعدَ ذَلكَ فَرَّقَ الأَسْرى عَلَى أصْحابِه ، بَعدَمَا نَصَحهُم وقَال لَهمْ :

- استَوْصُوا بالأَسَارى خيرًا .

وبَعدَ فترةٍ فُتِحَ بابُ الفِداءِ ، فَمنْ أَرادَ مِنْ قُريشٍ أَنْ يُطْلِقَ أسيرهُ تَقدَّمَ فَدفعَ الفِدْيةَ .

وصارتْ قُريشٌ تنْسَلُّ واحِدًا بَعدَ واحِدٍ إِلَى المدِينة تَطلبُ أنْ تَفْتدِيَ أسْراها ، وجَعَلَ الرَّسولُ عَليهِ السَّلامُ لِفداءِ الأَسْرَى نِظامًا : إمَّا بالمالِ يدْفعهُ وليُّ الأسيرِ ، وإمّا بأنْ يُعلِّمَ المشْركُ - الذى يقرأُ ويكتب - عشرةً مِنَ المسْلِمينَ القِراءةَ والكِتابةَ ، ثمَّ يُطلْقُ أسيرهُ ، وكانَ يَهدفُ عَليهِ السَّلامُ إِلَى نَشْرِ التَّعليمِ ، والعِلْمِ ، بَينَ المسْلمينَ ، إذْ كانَ عارِفُو القِراءةِ والكِتابَةِ مُعظَمهُم فى قُريشٍ ، والإسْلامُ دِينُ علم يحْتاجُ إلى القارِئين والكَاتبينَ ، كمَا أنَّ أوَّل آياته حَضَّتْ عَلَى العِلْمِ فقَال تعالَى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

فِـــــداءٌ

وكانَ لابُدَّ للمُشْرِكينَ مِنْ قريشٍ أَنْ يَفتَدُوا أسْراهُم ، الذِينَ صَارُوا فى حَوزةِ المسْلمينَ ، بَعد انْتصارِهم .

فكانَتْ تَفدُ كُلُّ قبيلةٍ لتُفْدِى ابنَهَا ، لِيُطْلَقَ سَراحُهُ من أَسْرِه ، وكَانتْ كلُّ قبيلةٍ تُقدِّمُ فِداءً لأسيرِها ، أيًّا كانَ هَذا الفِداءُ .

وكانَ مِنْ بينِ الأسْرَى أبو العَاصِ بنُ الرَّبيع زَوجُ زينب بنت الرَّسُولِ ، وكانَ لابُدَّ لأهْلِه أنْ يهتَمُّوا بافتدائِه ، وإطْلاقِهِ مِنْ أسْرِه ؛ ليعُودَ إلَى بيْته .

حَملَ الفِداءَ مِنْ مَكَّةَ عمروُ بنُ الرَّبيع ، وسَار إلَى المسْلمينَ فى المدينَة ، ليُطْلَقَ سَراحُ أخيه أبى العَاصِ .

وكانَ الفِداءُ مالاً ، وفى المال المقدَّمِ قِلادةٌ لزَينبَ زَوجةِ العَاصِ وبنْتِ الرَّسولِ ، ولهَذِه القِلادةُ مَنْزلةٌ ساميةٌ عِنْد الرَّسولِ ولها ذكْرياتٌ سَعيدةٌ طيِّبةٌ ، إذْ كانَتْ خَديجةُ رَضىَ الله عَنْها زَوجةُ مُحمدٍ عليهِ السَّلامُ قَدْ أهْدَتها إلَى ابنَتِها زينَب لَيْلَةَ زَفافِها ، وكانَ الرَّسولُ العظيمُ عَليهِ السَّلامُ ، يعْرِف القِلادَة ويذْكُر تاريخَها .

ولمَّا جَاءَ عَمْرو بنُ الرَّبيع بِفدْيةٍ يقدِّمُها لِيُطلِقَ سَراحَ أخيهِ

تلفَّت النَّبيُّ صَلواتُ اللهِ عَليهِ وسلامُهُ ، فَوقعَ نَظرهُ عَلى قِلادَةِ زَينَب وكانَ يعْرِفهَا ، ويعْرفُ مُناسبتَها مُنذُ أهْدَتها الزَّوجةُ الكريمةُ إلَى البِنْتِ الكريمةِ . فأخَذتهُ – عَليهِ السَّلامُ – الذِّكْرى ، وثارَتْ فى جَوانبِه العَواطفُ الرَّحيمةُ النَّبيلةُ .

وهَلْ عَواطفُ مُحمدٍ إلاَّ الفيضُ الإلَهىُّ ، والنُّورُ السَّماوىُّ ، والرَّحْمةُ المُبْصِرَة ؟

رقَّ قلبُه رقَّةً شَديدةً ، وتَفجَّرتْ فى قَلبِه أنبلُ العَواطِفِ عَليهِ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه .

والتَفتَ إلَى مَنْ يأخُذُ الفِداءَ ، وقالَ عَليهِ السَّلامُ ، فى حَنانٍ ، وفى رِفْقٍ :

– إنْ رأيتمْ أنْ تُطلقُوا الأسيرَ ، وتَرُدُّوا مَالهُ فافعلُوا » .

فقالُوا :

– نَعمْ يارَسُولَ اللهِ ! !

– سَارعَ المسْلمونَ إلَى تَكريمِ هٰذهِ العَاطِفةِ السَّاميةِ ، وأطْلقُوا سَراحَ أبِى العَاص مُكرَّمًا وردُّوا مَعهُ القِلادَةَ إلَى زَينبَ .

❊ ❊ ❊
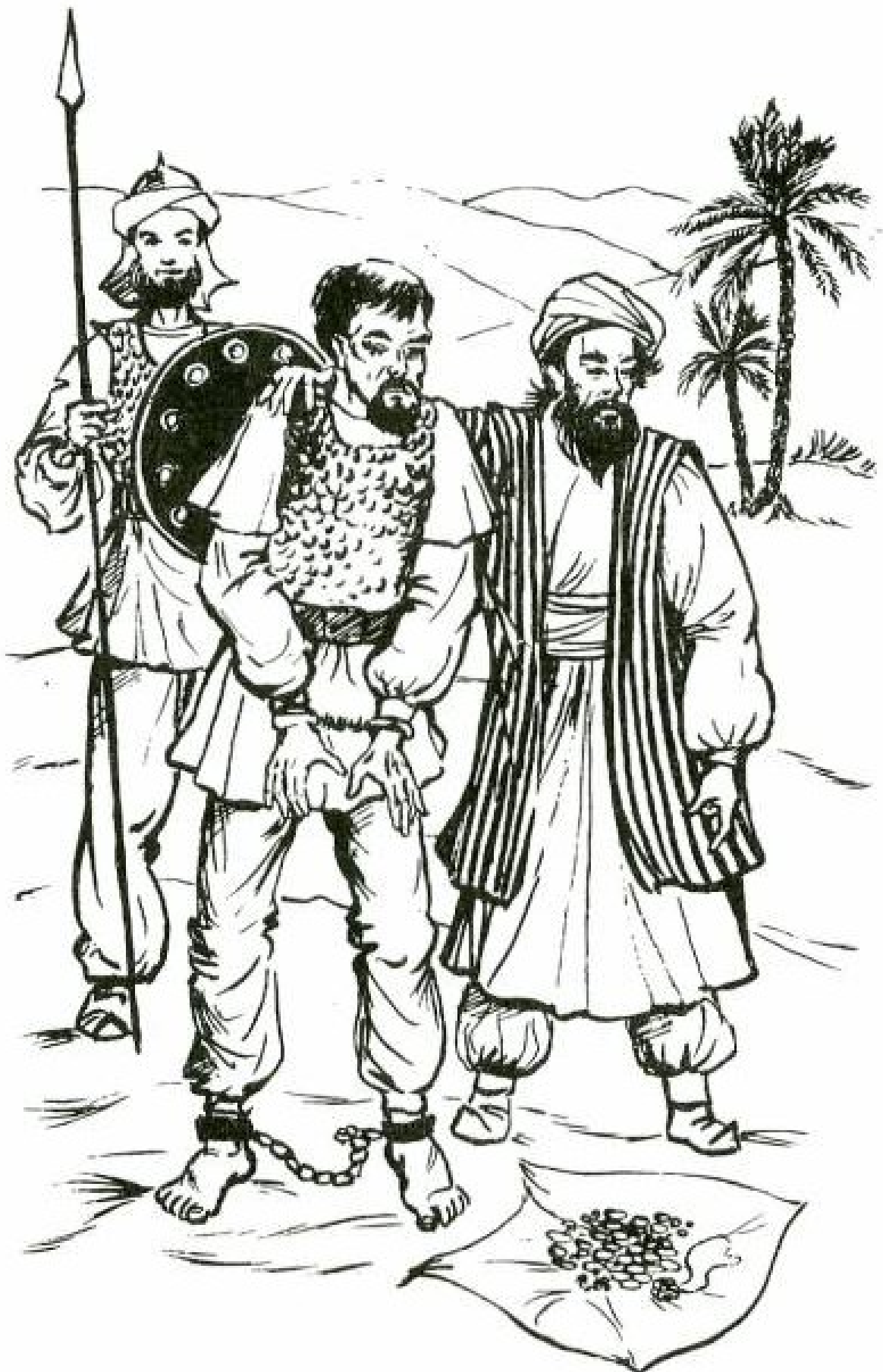
وَلمَّا أرادَ أبُو العاصِ أنْ يَرحَلَ – بَعد إطْلاقِ سَراحِه – إلَى مَكَّة استوقَفهُ مُحمدٌ عَليهِ السَّلامُ ، وطَلبَ مِنهُ أنْ يُخْلِى سَبيلَ زَينَبَ ، فَهِيَ لم تُعدْ لهُ ، لأنَّها مُسْلمةٌ ، وهُو مُشركٌ ، فَرضِىَ الزَّوجُ أنْ يُرسِلَ بزَينبَ إلَى أبيها ؛ لِتبقَى مَعهُ فى المدِينَة .

وبعَثَ الرَّسولُ عَليهِ السَّلامُ – فى طلب زَينَبَ – رَجُلينِ يَحْرُسانِها الَى المدِينةِ ، ويَصْحبانِها فى طَرِيقها الطَّويلِ ، بَعدَ أنِ اتَّفقَ مَعَ زَوْجِها أنْ يَحملَها إلَى مَوْضعٍ يَبعدُ نَحْو ثمانية أمْيالٍ عَنْ مكَّة ، ثُمَّ يُسلِّمُها إلى رَسُولَىْ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وصَلَ أبُو العاصِ إلَى مَكَّةَ ، فقَابلهُ المشْرِكونَ فَرِحينَ بعَودتِه ، ولَكنَّ نَفْسَهُ كانَتْ تَذوبُ بَينَ جَنْبيهِ ، فَهو لابدَّ مُوفٍ بوَعْده لصِهْره الكَريمِ وفى سَبيلِ ذَلكَ سَتُفارقهُ زَوجُه ، فَكان بَينَ أمْرَيْنِ شاقَّيْن ، ولَكنَّه لابدَّ أنْ يَفِىَ بَعهدِه لرسُولِ اللهِ ، مَهْما يَكنْ مِنْ أمرٍ .

شاعَ فى مَكَّة أنَّ زَينبَ سَتُسافرُ إلَى المدينةِ ؛ لتلْحَق بأبِيها ، والنَّاسُ بينَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ .

كيفَ أنَّ أبا العاصِ وقَدْ رجَعَ إلَى بَلدِه ، وصارَ بَينَ أهْلهِ يتْركُ

امْرأته تَرجعُ إلَى الرُّجلِ الذِى حَاربَ قَومَه ، وسفَّه آراءَهُم وأسرَ رِجَالهم ؟

فَهُو وَإن يَكُنْ أباها ، إلاَّ أنهُ عدوٌّ لقَومِه ، خَارجٌ عَلى مُعتقداتِهِم يتربَّصُ بهِمْ ، ويجْتَهدُ فى حَرْبهِم ، وإلْحاقِ الأذَى بهِمْ .

أرادتْ هندُ زَوْجُ أبِى سُفْيانَ أنْ تتثبَّتَ مِنْ سَفَر زَينبَ إلَى المدِينة فذَهبَتْ إلَيها ، وجَلسَت مَعَها جلْسةً فِيهَا حَنانٌ ورقَّةٌ ، وقالَتْ لَها :

– يابنْتَ مُحمدٍ ، بَلغنِى أنَّك تُريدِينَ اللُّحوقَ بأَبيكِ .

فقالَتْ زَينبُ :

– مَاأَردْتُ ذَلكَ .

قالَتْ لهَا هِندٌ :

– أىْ ابنةَ عمِّى ، لاتَتردَّدى ، وإنْ كُنتِ فى حَاجةٍ إلَى مَالٍ أوْ إلَى متَاعٍ يُساعِدكِ فى الرِّحلةِ ، فاطْلبيهِ ، فَهوَ عِنْدى لكِ ، ولَكنَّ زَينبَ – وهِىَ بنْتُ مُحمدٍ وبنْتُ خَديجةَ – خافَتْ مِنْ هِندٍ ، فأنْكَرت أنَّها تُريد شَيئًا .

* * *

فَرغَتْ زَينبُ بنْتُ رسُولِ اللهِ عَليهِ السَّلامُ مِنْ جَهازِها ، وقَدَّم لها أهْلُ زَوجها بَعيرًا ، فرَكبتْهُ ، فى هوْدَجٍ لَها ، وتحدَّثَ بذَلكَ رِجالٌ مِنْ قُريشٍ :

قالُوا :

تَخْرجُ بنْتُ مُحمدٍ إليهِ عَلانيةً . والنَّاسُ تَعرفُ كَيفَ أَصابنَا أبوها ، وفرَّقَ جمَاعتَنا ، وحارَبَ قَوافِلنا ، ويُريدُ أنْ يذلّنا ؟!!

سارَتْ تِلْكَ المقَالةُ بيْنَ قُريشٍ ، فتحمَّسَ مُشْرِكٌ أثيمٌ هُو : هبَّارُ بنُ الأسْودِ ، فانطلقَ حيْثُ كانَتْ زينبُ فى هَوْدَجِها فروَّعَها ، ووقَفَ فى طَرِيقها ، وسَدّدَ إليها لِسانهُ ورُمْحه وسَيفه ، وكانَتْ حامِلاً فسَقَطتْ عَلى صَخْرةٍ ، فمَاتَ جَنينُها ، وأصابَها همٌّ وفَزعٌ وأقبلَ أهْلُ زَوْجها ، وأقبلَتْ قُريشٌ ، وتَسامَعَ الناسُ بخَبرها ، وثارتْ ثُورةُ زَوْجها وإخوته ، ولكنَّ كِبارَ قُريشٍ هَدَّءوهُم ، وأسْكَتوهُم ، وقالُوا لزَوجها :

– كَيفَ تَسيرُ بهَا علانيةً ، وأنْتَ تعرفُ أنَّ أباهَا قَدْ حارَبنَا ونكبَنا ؟ إنَّنا إنْ رَضينَا بعَملكَ هَذا ظَنَّ النَّاسُ أنَّ ذَلِكَ عَن ذُلٍّ أصَابنَا ، وضَعْف حلَّ بنَا .

ولَيسَت لنَا حاجةٌ فى مَنْعِها عَنْ أبِيها ، ولَيسَ فى حَبْسِها عِندنَا

فَائدةٌ لنَا ، ولَكِنْ ارجِعْ بهَا الآنَ ، ثمَّ أَخرِجْها إلَيهِ سِرًّا فى ظُلْمة اللَّيلِ حتَّى لا يَتحدَّث الناسُ عنَّا .

فَرجعُوا بزَينَب ، وأقَامَتْ أيَّاماً ، حتَّى إذَا هَدأَ الناسُ خرَجُوا بهَا سرًّا فأسْلموهَا إلَى رَسُولَيْ - رَسُولِ اللهِ بَعْد مكَّة بثمانية أمْيالٍ .

وأقامَ الزَّوجُ أبُو العَاصِ بنُ الرَّبيعِ بمكَّةَ ، وأقامَتْ زَينبُ بنتُ الرَّسولِ عَليهِ السَّلامُ مَعَ أبيهَا فى المدِينَة مُعزَّزَةً مُكرَّمةً .

* * *

خَرجَ أبُو العاصِ بنُ الرَّبيع فى رِحْلةٍ ، وكانَ الأغْنياءُ يعْطُونهُ مالَهُمْ ، ليتَاجِرَ لَهُم فى الأسْواقِ الَّتِى يخْرجُ إلَيها العَربُ فى الشَّامِ وفى اليَمنِ ، ولَهُ نَصيبٌ فى الرِّبْحِ ، وكانَ مَعْروفاً بيْنَهمْ بالسُّمعةِ الطَّيبةِ ،والأمانةِ المْمتازةِ .

فخَرجَ فى بَعْض رَحلاته إلَى الشَّامِ ، يحْملُ تجارَتُه إلَى أسْواقِها ، ولمَّا فرَغَ مِنْ تجارَتِه ، وأقْبلَ عَائدًا إلَى مَكَّة ، لَقيتْه سَرِيَّةٌ مِنْ سَرايا المسْلمِينَ وكانَتْ تَقفُ لمصَادَرةِ أمْوالِ المشْرِكينَ .

تَقدَّم مِنْهُ أبْطالُ السَّريةِ وقالُوا لَه :

- هَلْ لَكَ أنْ تدخُل فى الإسْلامِ ، وتأْخُذَ مامَعكَ مِنْ مالِ المشْركِينَ مِلكًا خَالصاً لَكَ ، لأنَّها أمْوالٌ حَلالٌ لِلْمُسْلِمينَ .

فقالَ أبُو العاصِ :

– بئسَ ماأبدأُ بهِ إسْلامى أنْ أخُونَ أمَانتى ! !

فأخذُوا مَامعهُ ، وفرَّ هُو هَارباً مِنْهُم .

وحَملتِ السَّرِيَّة ما كَانَ مَع أبى العَاصِ مِنْ مالٍ إلَى المدِينَة ، لِيَكونَ فى حَوزةِ المسْلمينَ .

وفى ظَلام اللَّيلِ أقْبلَ أبُو العاصِ إلَى المدِينَة ، فدَخَلها ، واسْتمرَّ يَسْأل حَتَّى عَرفَ بَيتَ رسُولِ اللهِ ، فدَخَل فِيهِ إلَى زَينبَ زَوجَتهِ ، فاسْتَجار بهَا ، وطلبَ مُساعدَتَها ، ليَأْخذَ ما كانَ تَحتَ يَدِهِ مِنَ المالِ ، لأنَّه أمَانةٌ تَحتَ يَدِهِ . فَرحَّبَتْ بهِ زَينبُ وأجَارتْهُ . فلمَّا خَرجَ رسُولُ اللهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لصَلاةِ الصُّبحِ ، وارْتَفَع صَوتُ الأذَانِ : اللهُ أكْبرُ اللهُ أكْبرُ ، صرخَتْ زَينبُ مِنْ بَيتِ النِّساءِ وقالَتْ :

– أيُّها الناسُ ، إنِّى قَدْ أجَرتُ أبا العَاصِ بنَ الرَّبيعِ .

أقْبلَ الرَّسولُ عَليهِ السَّلامُ على صَلاتِه ، وخَلفهُ المسْلمُون ، يؤدُّونَ فَريضةَ اللهِ فى خُشوعٍ واطْمِئنانٍ .

ولمَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ أقْبلَ الرَّسولُ الكَريمُ عَلى المصلِّين ، وقالَ :

– أيُّها الناسُ ، هَلْ سَمعْتُم ماسَمعْتُ !

قالُوا :

– نَعمْ يارَسُول اللهِ .

فقَالَ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم :

– أمَا والذِى نَفْسُ مُحمدٍ بِيَده مَاعَلمْتُ بشَىءٍ مِنْ ذلكَ حتَّى سَمعتُ ماسَمعتُم : إنَّه يُجيرُ عَلى المسلمِينَ أدْناهُم .

ثُم انْصَرف صَلواتُ اللهِ عَليهِ ، ودخَلَ عَلى ابْنَته ، فَقالَ :

– أىْ بُنَيَّة ، أكْرِمِى مَثْواه ، ولا يَخلُصنّ إلَيكِ ، فإنَّكِ لا تحلِّينَ له .

تَصرُّفٌ حَكيمٌ ، وتَدبيرٌ سَليمٌ ، صدَرَ عَنْ رسُولِ ربِّ العَالمينَ .

واتِّجاهٌ راشِدٌ ، ورَأىٌ مُسدَّدٌ أنْ يتَّجهَ رسُولُ اللهِ عَليهِ السَّلامُ إلَى ابْنَتِه لتُكْرم أبا العَاصِ ، فهوَ ابنُ خَالةٍ . وهُو زَوجٌ ، وهُوَ الوفىُّ الأمِينُ ، الذِى عاهَد الرَّسُولَ فصَدَق ، وخَرجَ بمالِ قومِه وهُوَ الآنَ يستَميتُ فى ردِّ المالِ إلَيْهم ، والعَودةِ بالأمَانةِ إلى ديارِهم ، ثمَّ هُو قَدْ لجأ إلَى الجهَةِ الَّتى يأمُلُ فيهَا الخَيرَ ، ويرْجُو عِندَها النَّجاحَ . ومَنْ أوْلَى مِنْ رسُولِ اللهِ برِعَاية حُقُوق الزَّوجَة

والزّوْج ؟ إنّه يحْفظُ على الزّوجةِ حمايتَها لزَوْجها ، ولكنّهُ يحذّرها أنْ تُعطيَه كُلَّ حُقوقِ الزّوجِ على زَوْجها لأنهُ مُشْرِكٌ وهىَ مُسْلمةٌ والإسْلامُ فرّقَ بيْنَهما ، فَلا سَبيلَ لهُ إليْها إلاَّ إذَا أسْلَم .

بَعدَ أنِ اطْمأَنّ الرّسولُ عَليهِ السّلامُ إلَى رِعايةِ أبى الْعاصِ ، وإلَى تَنْفيذِ حقُوقِ الدّينِ فى بَيْتِه . ذَهبَ إلَى السّريّةِ التى أخَذتْ مَالَ أبِى العَاصِ فقَالَ لَهمْ :

– إنّ هٰذا الرّجلَ منّا حَيثُ قَدْ علمتُم ، وقَدْ أصَبْتمْ لَه مَالا فإنْ تُحْسنُوا ، وترُدُّوا عَليهِ الذِى لَه فإنّا نُحبُّ ذَلكَ ، وإنْ أبيْتُم فَهو فَىْءُ اللهِ [غنيمة] الذِى أفاءَ عَلَيْكم فأنْتُم أحقُّ بهِ .

فقالُوا :

– يارَسولَ اللهِ ، بلْ نَرُدُّه عَليهِ .

ثمَّ أرْجَعُوا المالَ الذِى كانَ مَعَ أبِى العَاصِ إليهِ ، لَم يَنْقُصْ مِنهُ شَىْءٌ .

حَملَ أبُو العَاصِ المالَ إلَى مَكّةَ ، بَعْد أنْ غابَ عَنْها زَمناً طَويلاً وظَنَّ المشْرِكونَ فيهِ الظُّنونَ ، وقالُوا بأنّه ذَهَب بمَالنا إلَى زَوْجتِه وإلَى صِهْره .

ولَكنَّ أبَا العاصِ كانَ أوفَى ذِمَّةً ، وكانَ أصْدقَ عَهْداً مِنْ كَثيرٍ مِنْ رجَالاتِ قُريشٍ .

أخَذَ المالَ إلَى أصْحابِه ، وأدَّى إلَى كلِّ صَاحِبِ مالٍ مَالَهُ ، ثمَّ قالَ :

– يامَعْشَرَ قُريشٍ : هَلْ بَقِىَ لأحدٍ مِنْكم عِنْدِى مالٌ لَم يأْخُذْهُ ؟

قالوا :

– لاَ ، فَجزاكَ اللهُ خيرًا ، فَقَدْ وَجدْناكَ وفيًّا كَريمًا .

فَقالَ أبُو العاصِ :

– فأنَا أشْهدُ أنْ لاَ إلَه إلاَّ اللهُ ، وأنَّ مُحمدًا عَبدهُ ورَسُولُه ، واللهِ ما مَنعنى عَنِ الإسْلامِ فى المدينَة إلاَّ مخَافَة أنْ تَظنُّوا أنِّى طَمعتُ فى أمْوالِكُم .

فَلمَّا أدَّاها اللهُ إلَيْكُم ، وفَرغتُ مِنْها أسْلمتُ .

أدَّى العاصُ بنُ الرَّبيعِ أمانَة قومِهِ ، وسلَّم كلَّ ذِى حقٍّ حَقَّه بعدَ أنْ تحمَّل فى سَبيلِ ذَلكَ مَشقَّةً وتَعباً .

رحلة كريمة

ثمَّ عزَمَ على أنْ يخْرجَ مِنْ مَكَّة إلى المدينةِ مُهاجرًا كريمًا ، ومُسْلماً طَاهراً فقدِمَ إلَيْها حتَّى دَخَل على رسُولِ اللهِ ، صَلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ، وأخبَرهُ بمَا كانَ ، وأعْلنَ أمَامهُ إسْلامَه ، فَفرحَ بهِ الرَّسولُ فَرحًا شَديدًا وردَّ إليهِ زَوْجتَه زَينَب ، بَعدَ أنْ صارَ مُسْلماً .

ولكنَّ القدَرَ القَاسِى لَم يتْركِ العاصَ فى رَاحةٍ وسَلامٍ ، لَقَد ماتَتْ زَينبُ رِضْوان اللهِ عَليْها ، مِنْ تأْثيرِ سُقُوطها وهِيَ مُهاجرةٌ بَعْد أنْ روَّعهَا هبَّارٌ الملْعونُ .

وسَلامٌ علَى زَينب فى الصّدّيقين والشُّهَداء والصَّالحينَ .

رقم الايداع : ١٠٥٦٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-14-0115-7